

اللسان العربي والجنسانية^(*)

الطاهر لبيب^(***)

مدير عام المنظمة العربية للترجمة.

لما كانت دراسة العبارة اللسانية، في جوهرها، بحثاً عن الدلالات؛ فهي تصطدم، بدءاً، بمعطى أساسي: لا يستطيع الإنسان التعبير إلا عما تسمح له اللغة (Langage) بالتعبير عنه. وأكثر من ذلك، إن هذه اللغة، شاء ذلك أم أبى، تفرض عليه مكتسباتها والمضمون الثقافي لذاكرتها. هذه «الحتمية»، التي من بين أخطر نتائجها أنها تستحضر أبعد الذكريات، في الوقت الذي يُراد فيه النظر إلى الحاضر المباشر، وأنها تساهم في توسيع التباعد بين ما يسمى دالاً وما يسمى مدلولاً، لا يبدو أنها أوحى بما يكفي من الحذر الضروري في تأويل العمل الأدبي العربي.

على أن الجنسية (Sexualité) ربما تكون المجال الذي يكون فيه رأي اللسان (Langue) أكثر تملكاً للحجج وأكثر مقاومة للزمن. ومع ذلك، فالجنسانية، هذه القوة المولدة للعالم، هي لغزٌ، بامتياز. إن الرغبة التي لا تنفك تجذب الجنسيتين، أحدهما إلى الآخر، هي رمزٌ لشيء يبقى، دوماً، خارج ما يمكن العثور عليه، كما يبقى غامضاً وغير قابل للفهم. «إن لغز الجنسية، كما كتب بول ريكور (Paul Ricœur)، هو أنها تبقى غير قابلة للاختزال في الثالوث الذي يصنع الإنسان: اللغة – الآلة – المؤسسة. إنها تنتمي، فعلاً، إلى وجودٍ مقبل لسانی للإنسان، وهي حتى عندما تكون تعبيرية، فعبارتها هي تحت ما هو لسانی وخارجه وفوقه. إنها تحرك اللغة، قطعاً، ولكنها تخترقها وتهزها وتصعدها وتبلدها وتشظيها في الهمس والابتهاال، وتزيل عنها وساطة الاتصال. إنها إيروس (Eros) وليست لوغوس (Logos). وهكذا فإن استعادتها كاملةً، في عنصر اللوغوس، تبقى مستحيلة استحالة تامة» (Ricoeur, 1960). هذه صعوبات كان يمكن أن تكون فعلية لو كنا نسعى إلى إدراك اللغز، لكن الأمر ليس كذلك، على وجه الدقة: ما هو مطروحٌ هنا، تحديداً، هو توقع مواجهة «الحتمية» اللسانية، عندما يتعلق الأمر بالتدليل على أن تجنيس اللغة العربية القوي يرسم علاقة مفهومية هي، في جوهرها، ثابتة بين الجنسيتين. ومما يزيد من أهمية هذا، أن ترسيمة هذه العلاقة سيتم

(*) هذا المقال هو الفصل الأول من كتاب: الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً، ترجمة المؤلف، علوم إنسانية واجتماعية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩). وقد أعيد نشره بإذن من المنظمة.

تعديلها، بصورة خاصة، في عالم العذريين الشعري الذي يسعى هذا العمل إلى تحليله.

من المؤكد أن تجنيس اللغة يتم في مستوى من الاتصال هو جنسي ولساني، في آن واحد: لقد أثيرت اللغة الجنسية «تحرير» المرأة المتقدم، نسبياً، في بعض أوساط العصر الأموي، كما سهل، عكساً، تجنيس اللغة الاتصال بين الرجل والمرأة، بالرغم من المنع الديني. وما يلفت الانتباه في هذا التقارب بين الجنسين، هو قيام الكلام مقام صاحبه، بدءاً بالشاعر نفسه. كثيرة هي الروايات التي تستسلم فيها المرأة، ذات النسب، للإغراء الجنسي أو لما يقاربه، لا استسلاماً للشاعر وإنما لشعره. الكلام وحده قادر على تعرية هذه المرأة^(١). إنه حالما يُقال، يصبح مستقلاً، بمعنى من المعاني، فيكون له دفعه ويُنْتِج أثره.

وتختلف درجات التجنيس (Sexualisation) وطرقه اختلافاً واسعاً، من مجتمع إلى آخر: قد تكتفي الجنسية، في مستوى التعبير، بما ينتمي إلى الحركات والإشارات في بعض الثقافات، ولكنها عند العرب كلام، بل لغة. الجنس واللسان، بمعنيي الكلمتين، مترابطان في الأخلاقيات الإسلامية. ولقد أورد الجاحظ ما يقال من أن «من حفظ لسانه وفرجه أمن شُرور الزمان» (Fahd, 1966: 476). هناك، إذن، تكامل وهناك، تبعاً لذلك، خوف من خيانة متبادلة، محتملة ضمناً، وهو ما يعني أن الواحد يؤدي إلى الآخر. فريضة الصيام تحتاط من هذه الصلة بين الاثنين؛ ولذلك، فإن الصيام لا يكتفي بالكف عن الأكل والشرب والنكاح، وإنما يتطلب، بحسب القرآن والسنة، صونَ اللسان أيضاً. هكذا يرتبط الصوم بالكف عن الكلام، في حالة مريم: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾^(٢). هذا الربط يوحي به، كذلك، الحديث «إذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقلل إنني صائم، مرتين»^(٣).

- ١ -

إذا نُظِر إلى السلوك الجنسي من وجهة نفسية لسانية، تبين أنه طَوَّر، إلى حد كبير، القدرة المجازية للسان العربي. هذه المعاينة تدعم الاعتقاد بأن الصورة المجازية المبحوث عنها هي «تعويض» أكثر مما هي مجرد عمل فني. إن بعض الوصف الذي يُعتبر بلاغياً، يدفع إلى الاعتقاد بأن الكلمات المختارة لها أثر المنشط أو «الشيء» الجنسي. لننظر كيف وصف الشاعر الخمر (أبو حيان التوحيدي، [١٩٥٣]: ج ٣، ١٤٥):

وعذراء تَرَّغُو حِينَ يَضْرِبُهَا الْفَحْلُ كَمَا الْبِكْرُ تَنْزُرُو حِينَ يَفْتَضُّهَا الْبَعْلُ

البلاغة العربية مشحونة بالكلمات والتعابير المستعارة من مجال الجنس لتسمية أوجه الأسلوب، فالتضمين، مثلاً، هذا الذي يسميه ماسينيون (Massignon) «انطواءً دلاليًا للمفهوم

(١) انظر، على سبيل المثال، خبر عمر بن أبي ربيعة وابنة محمد بن الأشعث، في: أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]:

ج ١، ص ٩٠.

(٢) القرآن الكريم، «سورة مريم»، الآية ٢٦.

(٣) نقلاً عن: المجلة الزيتونية (نونس) (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٩)، ص ٣٩٩.

نحو الداخل» يعني الطمرَ في الأرض، مقابل التخرّيج، وليس الحديث عن الإنبات إلا حديثاً عن الإخصاب. ولنُضف أن الضّمّن، وهو من الجذر نفسه، هو من أوصاف المحب العاشق. لقد رأى ماسينيون أنه وجد في الأضداد حالةً فرويدية. وإذا علمنا أن التضاد قد يكون في المطابقة أو في الطباق البلاغي الذي يجمع بين الشيء وضده في الكلام، فإن صورة الجنسين المتقابلين والمتقاربين، في آن واحد، ترد في الذهن، فعلاً. هناك أيضاً ما يسمى، في النحو، مزوجةً (والمعنى واضح) غرضها الربط، بالمعنى، بين لفظين. ومثلما هي الحال في الجمع بين الجنسين، فإن المقصود من الطباق ومن المزاوجة إثراء المعنى وإخصابه.

وما دام الأمر متصلاً بالتمييز بين الجنسين، فإن له ما يجانسه^(٤)، حتى في بنية النحو ومبادئه: هناك، أولاً، غلبة التذكير، في حال الجمع بين المذكر والمؤنث، وهو ما لا يختص به النحو العربي، لكن هناك ما قد نندهش له، كعدم إفراد بابٍ للمذكر مع إفراد باب للمؤنث، مثلما فعل ابن مالك في ألفيته. ولقد كان منه التبرير الآتي: الأصل في الاسم، هو التذكير، وما التأنيث إلا فرع منه. ولأنه كذلك، فهو لا يحتاج إلى علامة تدل عليه، في حين يحتاج التأنيث إلى علامة تدل عليه، وهي التاء المربوطة والألف المقصورة والألف الممدودة (ابن عقيل، ١٩٣١: ج ٢، ٣٠٤).

هكذا يكون للنوع، تذكيراً وتأنيثاً، دور نحوي مجانسٌ لدور من يدل عليه في الواقع. ويجب تأكيد أن لهذا النوع استقلالته: إنه، في حد ذاته، عالٍ أو متدنٍ. بهذا المعنى يتجه النحو العربي، وهو نحو معياري و«منطقي»، إلى إبراز الهيمنة الذكورية. وإذا صدقنا الأثاني، فإن الصدفة شاءت أن يكون الباعث على أول تصنيف في النحو خطأً نحوياً أنثوياً، خطأً ابنة أبي الأسود الدؤلي (أبو الفرج الأصفهاني، ج ١٢، ٢٩٨ - ٢٩٩)، وأن يكون أول أبوابه في التعجب وأفضل التفضيل.

قد لا نتوقع، في العادة، أن يكون فرق في القيمة بين التعريف والتذكير، بين «البيت» و«بيت»، غير أن أبا حيان التوحيدي يستنتج من «أل» التعريف تفوق الذكور، استدلالاً بالبنية النحوية، لا غير: «وجرى حديث الذكور والإناث فقال الوزير: قد شرف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله عز وجل ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾»^(٥)، فقلت: في هذا نظر، فقال: ما هو؟ قلت: قدّم الإناث، كما قلت، ولكن نكر، وأخر الذكور ولكن عرّف. والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم. ثم قال: هذا حسن. قلت: ولم يترك هذا أيضاً حتى قال: ﴿أَوْ يَزْوَجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنَاثًا﴾^(٦)، فجمع الجنسين بالتذكير مع تقديم الذكران» (أبو حيان التوحيدي، [١٩٥٣: ١٠١]).

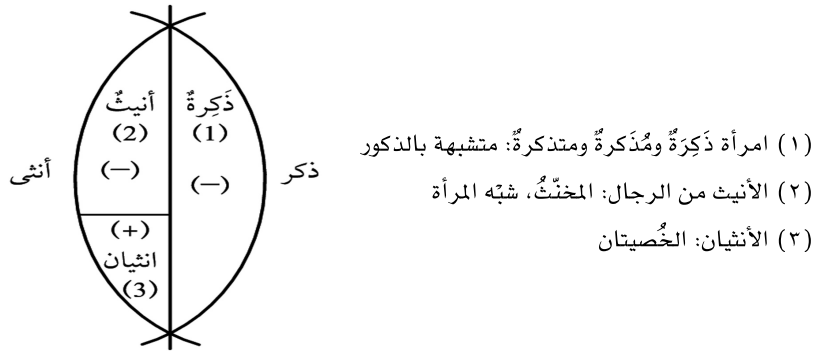
(٤) مفهوم التجانس (Homologie) مفهوم أساسي في هذا العمل، وهو مستعمل، على وجه التخصيص، للربط بين بنيتين (بنية العالم الشعري وبنية عالم الواقع)، لاستبعاد مقولة «الانعكاس» أو التأثير المباشر. لهذا فإن المقصود بالتجانس هو التجانس البنوي (Homologie structurale)، على أنه مستعمل، في بعض مواقع النص، مقابل (Homogénéité) وهو ما يتّضح من السياق، بصورة لا لبس فيها.

(٥) القرآن الكريم، «سورة الشورى»، الآية ٤٩.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الشورى»، الآية ٥٠.

إن «أل» التعريف، هنا، ليس لها طابع مرجعي أو دلالة سابقة الوجود ومعروفة. إنها «شريفة»، في حد ذاتها. إن النوع في النحولة قيمة خاصة به، تتضمن ترابعية تسكن اللسان، ولها علاقة تجانس مع الترابعية الجنسية، كما هي في عالم الواقع. لكأن الكلمات، في نهاية الأمر، تتوزع في «طبقات»، بعضها ذو حظوة وبعضها لا حظوة له. لنقل، بتعبير آخر، إن اللسان ينقل إلى الإنسان نسقاً من القيم، يوحى إليه ببعض التصنيفات التي قد لا يكون وضعها لو لم يعرف هذا النسق. سلطة اللسان هذه تتأكد أكثر حالما نسأل المعجميين. لنكتفِ باتخاذ بعض مشتقات ذكر وأنثى، كما وردت في لسان العرب: ظاهرتان أساسيتان تبرزان وتوضحان، بسهولة: التمييز الجذري بين الجنسين وتفوق صفات الذكورة.

١ - تنتمي مجموعتا المشتقات إلى حقلين دلاليين لا يتداخلان إلا قليلاً، وهذا التداخل يضيف صفة سلبية على ما يندرج فيه منهما: دلالة المشتق من أحد الجنسين تصبح سلبية عندما تحيل على الجنس الآخر. قد يحرص لسان العرب على توصيف هذه السلبية الناتجة من هذا التداخل، فيضيف، مثلاً، في تعريف الذكورة أو المذكورة أو المتذكورة «المتشبهة بالذكور»، قول بعضهم: «إياكم وكل ذكورة، مذكورة، شوهاء، فوهاء، تبطل الحق بالبكاء، لا تأكل من قلة ولا تعتذر من علة، إن أقبلت أعصفت وإن أدبرت أغبرت». الاستثناء الوحيد، في «إيجابية» الانتقال من حقل إلى الآخر، هو في لفظ (أنثيان)، الذي اشتق من (أنث)، ولكن لتوكيد ذكورة الذكر. هذا ما يوضحه، على وجه التبسيط، الشكل الآتي:



٢ - مجموعتا المشتقات التي لا تكون لدلالاتها، أحياناً، علاقة مادية بالرجل أو بالمرأة، يشكلان مجموعتين من القيم التي يتعارض الذكر والأنثى في تجسيدها. إن المقارنة بين المجموعتين تفضي إلى تعارض دلالي، ثنائي، واضح في مقابلته بين ما هو إيجابي للذكر وسلبى للأنثى. هذا التعارض هو ما يبرز الجدول الآتي أهم ما يلفت النظر فيه.

- ٢ -

ولنشر إلى أن ما لم يُذكر من المشتقات، تحاشياً لإرهاق الجدول، لا يغير من التعارض الثنائي الذي توصلنا إليه، بل يؤكد من طريق الترادف، غالباً. وإذا كان الجدول واضح الفصل بين مجموعتي المشتقات (باستثناء كلمة «أنثيان»): فإن مرد ذلك، كما وضعه الشكل السابق، أن كل انتقال من أحد الحقلين الدلاليين إلى الآخر تنجر عنه سلبية نوعية.

١	ب	ج	د	هـ
عمودية	أفقية	حركة	سكون	صلابة
الذكر: الجبل الخطير الواجب إجلاله (في) الحديث: القرآن ذكر فذكره) الذكر: الصلاة لله والدعاء إليه والعشاء عليه - الشرف والفخر والعقبت - الفخر الشديد الوابل	الذكر: جري الشيء (عمل) اللسان) الذكر (الداهية): ما لا يقوم لها إلا ذكران الرجال الذكر: (قوله) ذات أحوال، لا يسلكها إلا الذكر من الرجال	الذكر (من القول): الصاب اللين الذكر (من الحديد): أبيضه وأشده وأجوده وهو خلاف الأنيث الذكر (للرجال والسيف): الحدة والصرامة - القطعة من الفولاذ الذكر (من الإيمان): ما وصف بالشدة والعموية وكرة القتل.	هشاشة	وجود الجنس الذكر: المعفو والفعل - الرجل الذكر: يقال أحراراً من الخطي الذكر: أرض تبيت ذكور العقب الذكر: حمل النخل
الذكر: موضع الذكر الذكر: الذكر من التل	الذكر: سُميت أنثى من البلد الأنيث المنشآت والأبنية (من) الأرض): السهلة الأنية	الذكر: قيل المرات، مثل الحجر والخشب والشجر - الأصنام، والمرات كلها تُجر عنها كما تُجر عن الوزن تفسيراً للآية: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاءًا...﴾ (*)	الأنيث: سميت أنثى لأنها الأنيث: اللين - ما كان من الحديد غير ذكر أو غير ذكر - سيف ليس يقطع (والسيف المؤنث كالأنيث)	لا اشتقاق يشير إلى عضو المرأة الجنسي.

مشتقات «أنثى»

مشتقات «ذكر»

(*) القرآن الكريم، (سورة النساء) الآية ١٧.

وإذا اتخذنا، الآن، الرجل والمرأة مركزيّن لهذين الحقلين الدلاليين، أمكن إضافة الملاحظات السريعة الآتية:

١ - يبدو الرجل، في المقابلة (أ) أكثر قدرة من المرأة على الاتصال بالله (الذكر) وبالكون (المطر) وبالبشر (الذكر)، وإنّ في العلاقة مطر/أرض ما يوحي بصورة المرأة التي لا قدرة لها على الإنجاب دون الرجل، وبصورة المرأة المتلقية، في وضع سلبي.

٢ - تبلغ سلبية المرأة ذروتها في المقابلة (ب)، إذ لا حراك لها، في حين تعبّر حركة الرجل عن نفسها بخصال أخلاقية (ذكر = شجاع) وتتوجه نحو الفعل. أما المرأة التي يقال فيها ما يقال في «الموات مثل الحجر»...، فيبدو أن سكونها غير غريب عن الأساطير العربية: في الذهاب من مكة إلى عرفات يمر الحاج بأحجار تسمى «النسوة»، وأصل حكايتها أنه زنت امرأة في الجاهلية وحملت، وعندما جاءها المخاض أتت إلى ذلك المكان ووضعت حملها بحضور امرأتين، وقفت إحدهما أمامها والثانية خلفها. ويقال إنهن الثلاث مُسَخَّن أحجاراً (رواه الأزرق). وبحسب أسطورة أخرى، رواها ابن الجاور، فإن امرأتين تحجرتا في النقي، جنوب الجزيرة العربية. وإن العضو الجنسي، لكل منهما، ما يزال يُرى في الصخرة. ويضيف ابن الجاور أنهما ما تزالان تحيضان بانتظام، حتى الآن (Fahd, 1966: 16).

٣ - تصبح قوة الرجل، في المقابلة (ج) قوة قاطعة كالسيف من فولاذ، في حين تخون المرأة «طبيعتها»، فتبقى ليناً، حتى ولو كانت حديداً!

٤ - يصل الأمر، في المقابلة (د) إلى حد التمايز بين الرجل الذي يؤكد ذكوره بجنسه ذاته، (الذكر هو الرجل، وهو عضوه الجنسي)، والمرأة التي لا يُشتق من أنوثتها ما يدل على جنسها، مما قد يذكّر بـ «النقص» الذي ذهب إليه فرويد.

اعتماداً على هذا المثال الدلالي، يمكن أن نتوقع، منذ الآن، إلى أي حد كان هذا الشعر الذي نسعى إلى دراسته «عملاً في اللسان». إنه لسان لا ندري كيف أمكن أن يستبطن، في دلالية باطنية، ترسيمة علاقات لم ينفك الشعراء عن فك رموزها، وتبعاً لذلك عن تحيينها، أنثروبولوجياً، كلّ بما له من حدس وفهم. لن يكون من المبالغة اعتبار أن النقد العربي الكلاسيكي، وهو أساسياً ذو منحى بلاغي، كان له اهتمامٌ حقيقي بالمواجهة بين العمل الشعري، وهذه الدلالة المستبطنة في اللسان. إن ما ضاق به المحدثون، مما بدا لهم تشابهاً بين الأغراض الشعرية لم يكن، في العمق، إلا ضرباً من الوفاء العربي لسلطة لسانٍ ثري، إلى حد أن الدخول فيه لا يؤدي إلى صيغ من التعبير، فحسب، وإنما يكشف عن سلوكٍ معيش.

بهذا المعنى يمكن النظر إلى تطور أغراض الشعر العربي - وهو، بالضرورة، مواز لتطور الأسلوب - على أنه تجديد للعمل داخل اللسان العربي. نعم، ولكن من دون الإفراط في تقدير أثر هذا التطور. ذلك أن الترسيم التي يقترحها اللسان بقيت، رغم التحولات الاجتماعية التاريخية الكبيرة، ترسيمة مرجعية، خصوصاً في مستوى العلاقة بين الرجل والمرأة. لهذا، عندما حاولت أيديولوجيا الإسلام تطويعها لمقتضياتها، وجدت نفسها تواجه مقاومة دلالية نسميها اليوم علاقة شكل/مضمون، ولكنها كانت، عند العرب، علاقة شكل/

معنى/ معيش. ولقد بيّن اختيار الشعراء العذريين، موضوعاً لهذا العمل، أن أولى التعديلات الشعرية في ترسيمة العلاقة بين الرجل والمرأة، تناسب وضعاً جماعياً متميزاً بهامشيتها، بالنسبة إلى مجتمع العصر.

- ٣ -

ما قلناه يستدعي سؤالاً: كيف أمكن أن يتلازم تجنيسُ للسان وفصلُ بين الجنسين تلازماً يقتضي، أولاً، غياب التبادل اللفظي؟ يبدو هذا قابلاً للتفسير بظاهرة عجيبة: هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المجتمع العربي، في جملته، لا يقبل التوازي بين التواصل الجنسي والتواصل اللفظي، في مستوى الثنائية الزوجية، في حين يتسامح فيه في ثنائيات أخرى. ومهما يكن في الأمر من مفارقة، فإن الزوجة - تحديداً - هي موضوع القول المفرغ من عاطفته. إنها هي التي، قبل غيرها، تتيح للرجل إثبات هيمنة ذكوريته، وأن يتماهى مع الصورة التي يريد أن يحملها الآخرون عنه. لهذا يبحث الرجل والمرأة، سواء كان لهما اكتفاء جنسي أو لم يكن، عن فضاءات يعبران فيها، شفهاً، عن الرغبة وعمّا هو مكبوت منها. من الأمثلة عن ذلك، تلك «المجالس» التي عرفها العصر الأموي - وإن كانت أقدم منه - التي كانت تجمع بين الجنسين، في بعض الحرية المنافية لتعاليم الدين أو بدعوى «المزاح» على الأقل. ويبدو أن هذا «المزاح» كان مقبولاً، على وجه الإجمال، بين الجنسين، ما لم يربط بينهما رباط الزواج والنسب (أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]: ج ١، ١٦١) ^(٧). على أن تبادل القول المجنس قد يكون بالتراسل خارج المجالس، كما حدث لاحقاً. وقد وصل، أحياناً، حد «الفحش»، كما هي حاله في رسالة ينسبها كتاب الأغاني إلى ابن حمدون، مجيباً عن رسالة المغنية العباسية دُقاق. إنه يصف فيها قوة عضوه الجنسي، بكثير من الخيال والبلاغة، ذاهباً في ذلك إلى حد الأخذ من قصيد جاهلي قيل في الحرب (أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]: ج ١٢، ٢٨٣) ^(٨)!

ألا يمكن أن نرى في غياب تبادل التعبير العاطفي بين الزوجين، جانباً من الدفاع الجماعي التقليدي عن الذات؟ ذلك أنه بقدر ما تزداد حميمية الزوجين، تنغلق ثنائيتهمما ويقل انفتاحهما على الآخرين. «إن الأزواج العاشقين زوجاتهم هم استثناء يذكره، منذ القديم، مصنفون، كالكسائي، مثلاً. قد يؤخذ على الزوج إفراطه في حب زوجته، وقد يُدفع إلى تطليقها (كما رأى الإنطاكي)، تحت ضغط الجماعة أو ضغط رب الأسرة الذي هو تجسيدها المتأخر» (Vadet, 1968: 103). لعل جريراً (المتوفى حوالي عام ٧٣٣)، كان أول من نظم شعراً في زوجته (ولكن بعد موتها) (ابن خنفة، ١٩٦٠: ١٥٤)، ليقول:

(٧) أغلب ما كانت تكون هذه «المجالس» حول الشاعر. وقد كان يحدث أن يُدعى إليها من قبل النساء للتحدث، حتى أوائل الفجر.

(٨) لا ندري إن كان إهمال نص رسالة دُقاق التي تصف فيها عضوهما الجنسي، بصورة عجز معها ابن حمدون عن الرد عليها (والواقع أن مخنثاً أملاها عليه) يعبر عن موقف ذكوري، في مجتمع ذكوري. وسواء كان الإهمال مقصوداً أو غير مقصود، فهو يحيل على «النقص» الأنثوي المتضمن في اللسان العربي نفسه.

لولا الحياءُ لعادني استعبارٌ ولزرتُ قَبْرَكَ، والحبیبُ يُزارُ قبل هذا، كانت الخنساء (المتوفاة في عهد عمر، وإذن قبل ٦٤٤م)، قد عوّضت صمت الزوجين بما تقول الأخت في أخيها. لقد كان منها الوعد بالأ تبكي غير أخيها صخر. ما خالف ذلك، وهو نادرٌ، توجهت به إلى أخيها معاوية. لم يكن محتملاً، في عهد الخنساء، أن تقول الشعر امرأة في زوجها، كما لم يكن محتملاً عكس ذلك.

هكذا نتفق مع كلود ليفي ستراوس في ما وصل إليه حول الأسرة: «هناك خلاصة مهمة يجب أن تبقى عالقة في الذهن، وهي أنه لا يمكن اعتبار الأسرة الضيقة عنصراً مكوناً لجماعة اجتماعية ولا اعتبارها محصلة لها. وبتعبير أوفى، فإن الجماعة الاجتماعية لا تتكون إلا بتمييزها من الأسرة، وإلى حد ما بالاعتراف بها. إن الهم الأول للمجتمع، تجاه الأسرة، ليس أن يحميها ولا أن يقويها، بل أن يحذرَها وألا يعطيها الحق في وجودٍ مستقل أو دائم» (Lévi-Strauss, 1965: 312). لنضيف، للتذكير، أن الحذر من حميمية الزوجين في المجتمع العربي القديم على الأقل، كانت له، إلى حد كبير، مرجعيته في التعارض الجذري الذي أقامه اللسان العربي، داخله، بين الذكر والأنثى □

المراجع

- ابن خطفة، جرير بن عطية (١٩٦٠). ديوان جرير. بيروت: دار صادر.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن (١٩٣١). شرح ابن عقيل على ألفية الإمام أبي عبد الله محمد جمال الدين ابن مالك. علّق عليه ووضع له تكملة في تصريف الأفعال محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.
- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد (١٩٥٣). الإمتاع والمؤانسة. صححه وضبطه وشرح غريبه ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين. ط ٢. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر.
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (١٩٦٣). كتاب الأغاني. مصوّر عن طبعة دار الكتاب. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي؛ المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
- Fahd, Toufic (1966). *La Divination arabe: Etudes religieuses, sociologiques et folkloriques sur le milieu natif d'Islam*. Leiden: Brill.
- Lévi-Strauss, Claude (1965). «Man, Culture and Society.» cité par Luc Thoré, *Revue de l'action populaire*: mars.
- Ricoeur, Paul (1960). «Introduction.» *Esprit*: no. 11, novembre.
- Vadet, Jean-Claude (1968). *L'Esprit courtois en Orient dans les cinq premiers siècles de l'Hégire*. Paris: G.-P. Maisonneuve et Larose.